الفصل الخامس

دراسة البديع بين الجاحظ وابن المعتز

يعد كتاب البديع لعبد الله بن المعتز (المتوفى سنة ٢٦٩ هـ) أقدم الدراسات البلاغية المفيدة فيما نحن بصدده من بيان إسهامات الدارسين لوجوه البديع، بعد أن وقفنا على تفاوتهم فى تصور عموميات هذا العلم بحديثنا عن اختلافهم فى تصور ما يندرج تحت المجاز وما يندرج تحت البديع .

والجدير بالتقديم فى هذه المقايسة بين دراسة البديع عند الجاحظ ودراسته عند ابن المعتز أنه ألف كتابه البديع بعد وفاة الجاحظ بتسعة عشر عاما ، قال ابن المعتز : " وما جمع فنون البديع ، ولا سبقنى إليه أحد ، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين "(٣١).

وقد اعتمد ابن المعتز على دراسات الجاحظ للبديع ، كما نص على اعتماده على كتاب الأجناس للأصمعى(٣٢)ولا ينفى هذا أن ابن المعتز أول مؤلف فى العربية قصر كتابه على دراسة وجوه البديع .

عَدَّ ابنُ المعتز الاستعارة من وجوه البديع وهذا ما نفاه الجاحظ وتابعه فى ذلك كبار البلاغيين منهم عبد القاهر الجرجانى ويحيى بن حمزة العلوى والسكاكى .

أما المطابقة فقد أورد ابن المعتز دلالتها عند الخليل والأصمعى ،قال: (وقال الخليل رحمه الله : يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد ، وكذلك قال أبو سعيد الأصمعى ، فهى بمعنى إصابة الكلام الغرض المسوق له) . ثم أورد ابن المعتز شواهد عديدة من الكتاب والسنة والشعر والنثر مريدا بها الجمع

بين الشيء وما يقابله في الكلام ، منها ما يُعَدُّ في طباق الإيجاب ، منها ما يعد في طباق السلب.وعندنا أن الجاحظ سبق ابن المتعز إلى كل هذا ، وسماه التطبيق فمنه بمعنى إصابة الكلام الغرض المسوق له ، قوله:" وقال في التطبيق :

فَلَمَّا أَنْ بَدَا القَعْقَاعُ لَجَّتْ عَلَى شَـــرَكٍ تُنَاقِلُهُ نِقَالاَ

تَعَاوَرْنَ الحَدِيثَ وَطَبَّقَتْهُ كَمَا طَبَّقْتَ بِالنَّعْلِ المِثَالاَ

وفصل بين هذا المعنى و المعنى الاصطلاحي بقوله: وهذا التطبيق غير التطبيق الأول قال لقمان لابنه(أي بني،إني ندمت على الكلام ، ولم أندم على السكوت) (٣٤)

فالجاحظ عَرَّفَ بالمُطَابقة على المعنى الذي عَرَّفَهَا به الخليل والأصمعي ، وأضاف المعنى الاصطلاحي الذي سبق ابن المعتز إليه ، وسماها التطبيق ، وكل الذي أضافه ابن المعتز أنه سماها المطابقة وتوسع في إيراد الشواهد ، ولم ينتبه الدكتور خفاجي إلى أن الجاحظ سبق ابن المعتز إلى المعنى الاصطلاحي ، قال: "والتطبيق كان معروفا بمعنى إصابة الكلام الغرض المسوق له ، وذكره الجاحظ كثيرا في بيانه وهو بهذا المعنى خلاف ماعرف عند ابن المعتز حيث سماه (مطابقة) مُرِيدًا بها الجمع بين الشيء وما يقابله في الكلام" (٣٥) وأدل من هذا على أصالة الجاحظ في الدرس البلاغي أنه اتخذ الحديث عن التطبيق منطلقا لاستنباط معيار للقيمة الخلقية والجمالية في حضارتنا العربية الاسلامية سماه (إصابة المقدار) .

ومما لم يذكره ابن المعتز من وجوه البديع وأفاض الجاحظ في ذكره في كتابه البيان والتبيين- الأسجاع .(٣٦)

أما الباب الرابع من البديع عند ابن المعتز وهو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها فلم نجد ذكره في موضع من مواضع كتبه التي بين أيدينا ، ويبدو أن هذا الوجه البديعي من اكتشافات ابن المعتز .

قال ابن المعتز فى كتابه الباب الخامس :" هو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامى " . ولم يفسره ابن المعتز ، وذهب دكتور خفاجى إلى أنه القياس المضمر عند أصحاب الخطابة والمنطق (٣٧) مستفيدا من التعريفات للجرجانى(٣٨).

وعقب الدكتور شوقى ضيف على اجتهادات القدماء والمحدثين فى تفسير المذهب الكلامى بقوله:" وقد ظن بعض السابقين والمعاصرين أن الجاحظ وابن المعتز جميعا يريدان به القياس المضمر الذى يُحْذَف فيه حَدُّه الأصغر ، غير أن مَنْ يرجع إلى الأمثلة التى ساقها ابن المعتز ير فى وضوح أن دلالة المذهب عنده كانت أوسع من ذلك . وأكبر الظن أنه والجاحظ جميعا يريدان به طريقة المتكلمين العقلية فى الاحتجاج و الجدل والاحتيال للعلل والمعاذير . وربما شهد لذلك قول الجاحظ:(لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى ... و للعقل فى خلال ذلك مجال وللرأى تقلب ، وتنشأ للخواطر أسباب ويتهيأ لصواب الرأى أبواب) (٣٩).

نتفق مع أستاذنا الدكتور شوقى ضيف فيما ذهب إليه ونقدم تفسيرنا للمذهب الكلامى فى رسالتنا للدكتوراه التى ناقشها سيادته وأقر هذا التفسير ، ونعد بالمزيد من تفسير المذهب الكلامى حين ننشر الرسالة كاملة فكل الأدباء أكلوا على مائدة الجاحظ كما قال توفيق الحكيم فى كتابه (فن الأدب) ، والمذهب الكلامى يفسر أدب الجاحظ . يقع تنظيره الكلامى فى مواطن عدة من رسالتنا نختار أهمها ويقع تحت عنوان المحاجة الخطابية ويتصل بمقايسة الجاحظ بين الشعر والخطابة .

الحجج الفنية للخطيب والكاتب منها ما يتعلق بأخلاقهما؛لأنها من وسائل الإقناع، ومنها ما يتعلق بأخلاق جمهورهما وما يثيرانه من انفعالات فيه ، ومنها ما يتعلق بالكلام نفسه ببيان الحقيقة أو ما يظهر كأنه الحقيقة ببراهين يتوقف الاقناع بها على حسب كل حالة على حدة .

يتمثل المذهب الكلامى فى قياس التمثيل وفى القياس المضمر ، أما التمثيل فيعتمد عليه الخطيب بايراد حالات كثيرة مشابهة للحالة التى يراد الاستدلال عليها للبرهنة على أنها نظيرتها، ويسمى فى المنطق(الاستقراء) ويسمى فى الخطابة المثل . وقد استعمل المعتزلة المثل فى الاعتبار وكسب المعرفة قال :"وقد قال المتكلمون والرؤساء والجلة العظماء فى التمثيل بين الملائكة والمؤمنين ... ومن طباع الديك ومن طباع الكلب ... وإنما قصدنا إلى شيئين يشيع القول فيهما ، ويكثر الاعتبار مما يستخرج العلماء من خفى أمرهما ... فقد يكون فى الشىء بعض الشبه من شىء ، ولا يكون ذلك مخرجا لهما من أحكامهما وحدودهما."(٤٠)وقد أورد الجاحظ فى كتابه الحيوان فى المناظرة بين الديك والكلب وتقع بين الجزءين الأول والثانى ما يقرب من مائة وخمسين مثلا فى سياق المناظرة بين صاحبى الديك والكلب فهى حجج خطابية استدل بها كل منهما على صحة دعواه . وصاحب الكلب رمز للعرب ، صاحب الديك رمز للفرس .

والقياس المضمر حذف فيه حده الأصغر ،لأن الجمهور ليس فىحاجه إلى ذكره فى الخطابه ، وهو نوعان : نوع يستخدم فى الاستدلال ، وآخر فى التفنيد ، ولكل منهما مواضع حجج عامة ، ومما يفيد الكاتب والخطيب فى القياس المضمر الاستدلالى :

١ – التضاد ٢ – علاقة الأقل بالأكثر. ٣ – المحاجة بالزمن .

٤ – تعريف الكلمة لاستنتاج الحجة من هذا التعريف .

٥ – تقسيم الشىء إلى أجزاء لاستخراج الحجة من هذا التقسيم .

٦ – الموازنة بين نتيجة شيئين متعارضين . ٧ – العلاقة بين النتيجة والمقدمات.

٨ – إذا بين الخطيب أن الغاية المحتملة لشىء ما أو لعلة ما هى الغاية الواقعية منه .

٩ - وقد يعتمد الخطيب فى حجته على السبب .

هذا ما شرحه أ.د. محمد غنيمى هلال عن أرسطوطاليس فى كتابه الخطابة - القسم الأول .(٤١) وقد نص على القياس الامام الشافعى فى رسالته فى أصول الفقه ، قال :"كُلُّ ما اختلفوا فيه إلاوَجَدْنَا فيه عندنا دلالة من كتاب الله أو سنة رسوله أو قياسا عليهما أو على واحد منهما "(٤٢)وأقر الجاحظ أنه استعمل القياس قال :

"فإن قلت : وأى شىء بلغ من قدر الكلب وفضيله الديك حتى يتفرغ لذكر محاسنهما ومساويهما،والموازنة بينهما ، والتنويه بذكرهما ، شيخان من علية المتكلمين ومن الجله المتقدمين فإن جاز هذا فى الرأى وتم عليه العمل ، صار هذاالضرب من النظر عِوَضًا من النظر فى التوحيد ، وصار هذا الشكل من التمييز خلفا من التعديل والتجويز ، وسقط القول فى الوعد و الوعيد ، ونسى القياس والحكم فى الاسم ، وبطل الرد على أهل الملل ..."(٤٣)

وقد رد الجاحظ على سائله باطناب، نختار لك ما يدل على مذهبه فى أن التفكر فى خلق الله عبادة نحن مأمورون بها ، قال :" ألا ترى أن الجبل ليس بأدل على الله تعالى من الحصاء،وليس الطاووس المستحسن بأدل على الله تعالى من الخنزير المستقبح ، والنار والثلج وإن اختلفا فى جهة البرودة والسخونة ، فإنهما لم يختلفا من جهة البرهان والدلالة ... فلا تذهب إلى ماتريك العين واذهب إلى ما يريك العقل . وللأمور حكمان . حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول . والعقل هو الحجة ."(٤٤)

هذا هو المذهب الكلامى يتعامل مع العقل بالحجة ويستخدم قياس التمثيل للإقناع ، كما يستخدم القياس المضمر فى الاستدلال وفى تفنيذ حجج الخصم . والشواهد على المذهب الكلامى من أدب الجاحظ وفيرة تجدها بخاصة فى كتابنا آراء الجاحظ البلاغية بعنوان : (موقف الجاحظ من الصحيح والمنحول)(٤٥) .

عرَّفَ ابنُ أبى الإصبع المصرى المذهب الكلامى فى كتابه (بديع القرآن) : "أنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام . ومنه نوع منطقى تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة."(٤٦)ورَدَّ على زعم ابن المعتز أنه لا يوجد منه شىء فى القرآن بأن الكتاب الكريم مشحون به ، واستشهد على وجوده فى القرآن بقوله تعالى عن نبى الله إبراهيم عليه السلام : (وَحَاجَّهُ قومُه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شىءٍ علما أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم يُنَزِّلْ به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه. نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم.)الأنعام ٨٠-٨٣. نقدم شاهدا من المذهب البديعى للجاحظ لم يقتصر فيه على التفنيد لحجج الخصم، بل لجأ إلى التعريض به أنه لم يصدر فى نقده إلا عن جهل وحسد، كما تهكم منه . قال فى مقدمة كتاب الحيوان : " وَعِبْتَنِى بكتاب (العباسية) فَهَلَّا عِبْتَنِى بحكايةِ مقالةِ مَنْ أبى وُجُوبَ الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن تركَ الناس سُدًى بلا قَيِّمٍ أَرَدُّ عليهم ، وَهَمَلًا بلا رَاعٍ أربح لهم ؟!" (٤٧)

والشاهد الثانى الذى هو حُسْنُ الخِتَام وفَصْلُ الخِطَاب وعنوان الباب قوله تعالى: (أولم يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبِينٌ . وضَرَبَ لنا مَثَلًا ونَسِىَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحْيِى العِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الذى أنشأها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الذى جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فإذا أنتم منه تُوقِدُون . أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ بِقَادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيم) يس ٧٨-٨١ .وبانتهاء أبواب البديع الخمسة عند ابن المعتز يبدأ القسم الثانى من كتابه الذى يتناوله بعض محاسن الكلام والشعر قال :"....

ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها ... ولأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة ، اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة ، فمن أحب أن يقتدى بنا ، ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، ولم يأت غير رأينا فله اختياره .(٤٨)

نكتفي بهذا القدر في الموازنة بين درس الجاحظ ودرس ابن المعتز البديع ونعود إلى الموضوع بتوسع حين ننشر كتابنا(آراء الجاحظ البلاغية .) كاملا بجزءيه، إن شاء الله . فهذا الدرس يحتاج استقصاؤه إلى كتاب يستقل به .